

## لغة الدموع

### بقلم أدما حبيبي

لكنّ ما تعلّمناه في الصغر يا إخوتي ليس هو الحقيقة في كل حال. لأنّه من غير الممكن ألا يبكي الإنسان ومهما كان ! قاسياً ظالماً طاغياً وكائناً من كان. لأنّ مخلوقات الله التي تمتاز بالوعي والإدراك لا بد أن تعبر عمّا في دواخلها من حشراجات في الوقت المعين. أفلا يبكي الرجل مثلاً، وحتى أكبر الرجال، حين يجور عليه الزمان؟ ومن يداهمه الخطب الجلّ؟ ألا يبكي الرجل حين تصيبه الويلات والكوارث؟ ألا يذرف دمه حين يفقد ولده؟ ألا يبكي في وقت الترح؟ نعم وأيضاً في وقت الفرح؟ لا بدّ أنه يفعل كذلك حين يعانق ابنه العائد من بعيد، أوحين تتجبّ زوجته وليّ العهد المنشود، أو حين يُطلّ حفيده برأسه على هذه الدنيا!!! لغة الدموع هذه، لا يمكن أن تختفي من قاموس الإنسان ما دام يحمل الطبيعة البشرية هذه في جسده المجبول بالحس والعطف والحنو، رجلاً كان أم امرأة طفلاً أم شيخاً. نعم و يبكي الكبار كما الصغار أحياناً عندما يعجزون عن التعبير بواسطة الكلام لأنّ الدموع استجابة طبيعية لما يحدث في داخل الإنسان من انفعال أو توتر أو حماس ، أو لما يحلُّ به من حزن وألم وفقدان.

وحذارٍ حذارٍ من كبت الانفعالات أو العواطف الجياشة لأنها سرعان ما تتحوّل إلى حسرات وربما آهات قد تؤدي إلى دمار في الصحة وربما الهلاك. وهذا ما توصلت إليه دراسة أمريكية جديدة وهو أنّ كبت المشاعر لدى الإنسان يجعل المرء أكثر عدائية بينما التعب الجسدي لا يؤثر على ذلك. ووجد الباحثون الذين أجروا الدراسة في جامعة تكساس (أوستن) أنّ من أُجبروا على كبت مشاعرهم وعدم إظهار أية ردّة فعل بشأن مشاهد فيلم مثير للاشمئزاز ، كانوا أكثر عدائية ممّن سُمح لهم بإظهار هذه المشاعر. وقال الباحث المسؤول عن الدراسة (آرثر ماركمان) إنّ البحث أظهر

"حياتي دموع، وقلب وكوع، وشوق وديوان شعر وعود. حياتي، حياتي أسيّ كلّها إذا ما تلاشى غداً ظلّها، سيبقى على الأرض منه صدى، هنا مُنشدًا: حياتي دموع، وقلب وكوع وشوق وديوان شعر وعود."

هذا الشعر للشاعرة الفلسطينية المعروفة فدوى طوقان وجّه نظري إلى لغة الدموع التي يندُرُ التكلم عنها إلى حدّ التكرار لها في أحيان كثيرة. لكن، هل فكرنا مرة في لغة الدموع يا ترى؟ هذه اللغة الحساسة المرهفة التي لها من القوة والتأثير ما لقوة الكلمة المدوّنة أيضاً من فعالية؟ هذا التعبير الصامت لحشراجات القلب واختلاج الجودان، هذا التعبير الفطري عندما تعجزُ الكلمات وحينما تنبهرُ حنايا الإنسان من أحداث الحياة الجسام!! فتحلُّ لغة التواصل الجديدة المرئية مكان التفوه ببنات الشفة، وهكذا تتدفقُ الأحاسيس لتأخذ شكل العبرات وتتطلق من محاجر العيون وتنساب على الخدين مدراراً ، وهي تقيض كالينبوع بالعواطف الجياشة، علّها تشفي القلب الجريح من جرّاء موقف حزين أليم ، أو عساها تُشعرُ صاحبها بقمّة النشوة والارتياح، في موقفٍ آخرٍ بهيج.

نعم إنّها لغة التخاطب الجديدة لغة الدموع التي طالما تعلّمنا منذ صغرنا بأنّها لا يمكن أن تجد طريقها إلى محاجر الرجال، لأنّ الرجل قويٌّ كالصخر ومن غير المقبول أن يبكي. فدموع الرجال عزيزة و نادرة، لأنّ البكاء ليس للرجال والدموع هي للضعيف. بل إنّ لغة الدموع هي مقتصرة على النساء والنساء فقط. فالمرأة مختصة بها، لأنّ دمعته سخيّة، وهي أبداً جاهزة لانحدار في كل الأوقات وكذا في كل المناسبات. أليست عواطف المرأة جياشة ؟ أليست هي مرهفة الأحاسيس وسريعة الانفعال؟ إزاء أفراح وأتراح الحياة سواء؟! !!

فمي وقال إن هذه قد مسَّت شفطك فانتزع إثمك وكُفِّر  
عن خطيتك... (أشعيا ٦)

ليس الشفتان اللتان تفوهان بالكلام هُما بحاجة إلى لمسة  
من هذه الجمرة المتوهجة فحسب، بل هو القلب والكيان  
أيضاً، حيث مصدرُ الكلام ومنبعُ كلِّ التعابير، هو الذي  
يحتاج إلى لمسة النار هذه ليحظى حقاً بالتغيير والتبرير  
تماماً كما فعلت المرأة الخاطئة عندما .. "جاءت بقارورة  
طيب ووقفت عند قدمي الرب يسوع المسيح الفادي  
باكيةً. وابتدأت تيلُّ قدميه بالدموع وكانت تمسحهما  
بشعر رأسها وتقبل قدميه وتدهنهما بالطيب." لم تهتم بما  
يقوله الناس عنها، بل أتت إليه بكل انكسار وراحت  
تذرف الدموع، دموع الأسف والتوبة عن خطاياها.  
عندها " قال لها يسوع: مغفورة لك خطاياك .. إيمانك قد  
خلصك اذهبي بسلام." (لوقا ٧)

الارتياح التام والسلام العام كانا نصيبَ هذه المرأة  
النادمة عن خطاياها. هنا، وهنا فقط، ترتاح الروح لأنها  
تحظى بالغفران الأكيد والسلام الوطيد من فادي الأنام  
والمخلص الوحيد الرب يسوع المسيح. ما أحرانا  
أصدقائي أن نذرف دموعاً سخينةً معلنين بذلك عن توبة  
حقيقية وعودة مخلصنا إلى الله الأب وهكذا نستعيد  
صفاغنا الأول ونقاغنا الذي يريدنا أن نعيش فيه دائماً  
وأبدأً خالقنا العظيم . إنَّ الله الأب فاتح ذراعيه يقبل كلَّ  
من يأتي إليه، والابن المتجسد الرب يسوع المسيح، لا  
يردُّ كائناتاً من كان يأتي إليه باكياً وتائباً عن خطاياها لأنه  
عنده الخلاص الأكيد. أليس هو الذي قال: " تعالوا إلي يا  
جميع المتعبين والثقلين الأحمال وأنا أريحكم." (متى ١١)  
والروح القدس الأفتنوم الثالث يعمل في حنايا القلب  
الداخلية لكي يعرف الإنسان على حقيقة نفسه الخاطئة  
فبيكته ويدفعه إلى التوبة عنها وبعد ذلك يقُدس حياته

أن الأشخاص قد يصبحون أكثر عدائيةً بعد كُبت  
مشاعرهم. كما يرى العلماء أيضاً أنَّ الدموع الأصلية  
سواءً كانت دموع الفرح أم الترح تساعد على إعادة  
التوازن لكيمياء الجسم. كما أنها تساعد على العلاج  
النفسي. فالإنسان عندما يشعر بالحزن مثلاً يفرز جسده  
مواداً كيميائية ضارة تساعد الدموع على التخلص منها  
وتزيد من ضربات القلب فتعتبرُ تمريناً مفيداً للحجاب  
الحاجز. وعند الانتهاء من البكاء تعود عضلة القلب إلى  
وضعها الطبيعي وتسترخي وعندها يتسلل إلى الإنسان  
شعورٌ غريب بالراحة يساعده على أن ينظرَ إلى الهموم  
نظرةً أكثر وضوحاً وموضوعية. فالدموع تغسل أحزان  
النفس وتعيدُ إليها القدرة على التحمل والصبر. وفي  
دراسة أخرى أُجريت على الدموع تبين أن ٨٥% من  
النساء و ٧٣% من الرجال قد شعروا بالارتياح بعدها.  
هذا هو الارتياح الذي تنشده النفس ويطلبه الجسد.

لكن ماذا عن ارتياح الروح في حضرة الله تعالى الخالق  
المهوب والقدوس العظيم؟ كيف تحظى الروح بارتياح  
مستديم؟ نعم، إنَّ تلك الدموع التي نذرفها أسفاً على  
ذنوبنا وخطايانا وأثامنا التي نرتكبها في حياتنا، دموع  
التوبة المخلصة والندم الحقيقي على تعديتنا، هذه الدموع  
هي وحدها التي تعيدُ إلينا الصفاء والنقاء لعلاقة صحية  
وصحيحة مع خالقنا وصانعنا ونافخ نسمة الحياة فينا.  
فهلأ شعرت بأهميتها يوماً ما في حياتك يا قارئ؟ هل  
دخلت يوماً إلى مخدعك، وأغلقت بابك، وجلست منفرداً  
في حضرة الله القدوس والطاهر الموجود في كل مكان  
وكلَّ أن؟ وهل بدأت عندها في محاسبة نفسك وأنت في  
الحضرة الإلهية؟ لقد حظي مرةً النبي إشعيا برؤية  
مشهدٍ عن قداسة الله فصاح بأعلى صوته وقال: ويحي  
إني هلكت لأنني إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين  
شعب نجس الشفتين.... فطار إلي واحد من السرافيم  
وبيده جمره قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها

يومياً. فهل اختبرت اختبارَ التغييرِ هذا في حياتك يوماً  
يا قارئى؟

الدموعُ نذرفها في الفرح والترح ، والدموعُ نذرفها حين  
تثنُّ الروح أيضاً تحت وطأة الذنوب وهي تشناق إلى  
العودة إلى الخالق المحب. فهل بكيتَ على خطاياك يوماً؟  
إنَّ دم يسوع الذي سُفك فوق الصليب من أجل إنقاذك من  
عقاب الخطية لسوف يطهر قلبك بالتمام إن أتيتَ إليه  
بصدق وإخلاص . فلماذا لا تأتي إليه بقلبٍ نادمٍ عن  
خطاياك . لأن الكتاب المقدس الموحى به من الروح  
القدس يخبرنا نحن أولادَ آدم، أننا مجبولون بالخطية إذ  
يقول: "الجميع زاغوا وفسدوا ليس من يعمل صلاحاً  
ليس ولا واحد." (رومية ٣ : ١٢) ويقول أيضاً: "لأن  
أجرة الخطية هي موت وأما هبة الله فهي حياة أبدية في  
المسيح يسوع ربنا." (رومية ٦ : ٢٣) . فما أحراك يا  
أخي (أختي) أن تأتي إلى الله الأب نادماً عن خطاياك  
وتائباً عنها وواثقاً أيضاً أن يسوع المسيح هو الفادي  
الوحيد الذي مات عنك ليهبك حياة وحياة أفضل. فهل  
تطلب منه الغفران والتبرير؟ قل له: يا رب ارحمني أنا  
عبدك الخاطيء. وثق بأنَّه يقبلك وتصبح من أولاده  
المؤمنين. وهكذا تتبرر أمام الله من كل خطاياك وتحصل  
على حياة السلام بينك وبين الله تعالى وتعود الشركة  
المقطوعة بينكما وتحظى بالصفاء والنقاء اللذين تشناق  
إليهما روحك التي هي قبسٌ من روحه تعالى. وساعتئذٍ  
ستعدو الحياة فرحاً مستمدّاً من النبع الذي لا ينضب،  
وسلاماً أكيداً يفوق كلَّ عقل وكلَّ وصف. نعم، ولن تعود  
الحياة أسىً كما قالت الشاعرة فدوى طوقان، لأنَّ الأمل  
بالرجاء هنا على الأرض وفي دار النعيم لسوف يبرزُ  
مع فجرِ يوم الولادة الجديدة.